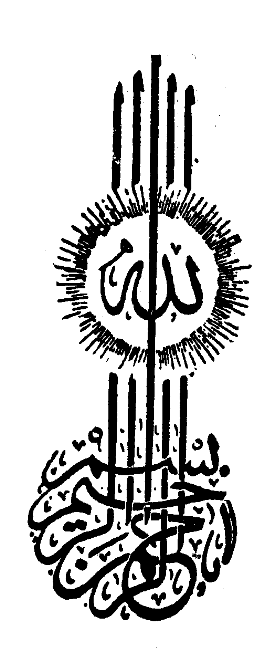
أحمد إسماعيل إسماعيل

مرايا الحلم والنمل

قصص


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، أحمده على جزيل نعمائه ، وأشكره على جليل آلائه ، وأصلى وأسلم على صفوة خلقه وسيد أنبيائه ، وعلى آله وصحبه وأوليائه .. وبعد .

فهذه مجموعة قصصية للأديب الواعد أحمد إسماعيل ، يصطبغ بالصبغة المصرية ، وإن كانت ترسم شخصيات ، وتعالج مشكلات إنسانية عالمية ، وهذه إحدى الميزات التى تشتمل عليها هذه المجموعة التى هي أشبه ما تكون بالقصص الروسية ، صاحبة الريادة فى هذا الفن .

عنى الكاتب فى هذه المجموعة بمعالجة أفكار إنسانية عامة هذا ما يرشح قصصه للخلود ، لأن القصة الإنسانية تبقى بقيت الحياة ، كما أنها قابلة للذيوع فى الخارج لأن الفكرة إنسانية يستسيغها ذهن كل أمة .

وفى هذه المجموعة طائفة من الصور الاجتماعية الصادقة ، التى أثرت فى طريق المؤلف فقيّدها فى حذق وبراعة ، وبأسلوب هادئ .. رصين ، يشهد لصاحبه بدقة الملاحظة ، والإحساس بالحياة المعنوية .

أضف إلى هذا تلك الروعة التى قدّم بها شخصيات قصصه ، من خلال رسم الخلجات النفسية لكل شخصية ، وتتبع

تطورها ، وتحليلها ، وكشف نواحيها الخلقية .. فى قالب يعلق الأنفاس .

وتبدو فى هذه المجموعة قدرة الكاتب على استدراج القارئ ويسحبه إلى حيث يريد له الكاتب أن يكون ، هذا الأمر كان الرومان يعرفونه بالمقولة الشهيرة " الفن هو إخفاء الفن " .

كما يبدو أن الكاتب يمتاز بدقة الوصف ، تلك الدقة التى برع فيها الكتاب الفرنسيون .

من أجل هذا كله سيجد القارئ نفسه كلما فرغ من قراءة واحدة من قصص هذه المجموعة .. مدفوعا لقراءة التى تليها ، وكلما أتم قدرا من الصفحات ثم طوي الكتاب .. رأي يده تمتد إليه ثانية .. لتعيد بسطه لعينه ، ولا يزال كذلك حتى يأتي على آخره ، يدفعه الشوق ، وتستدرجه اللذة .

وإنه لمن دواعى اغتباطى أن أؤكد للقارئ أنه سيجد فى هذه المجموعة القصصية متعة لا يظفر بمثلها من كل كتاب .

دكتور / جمـــال زاهـــر
كلية التربية
جامعة قناة السويس

لم يكن للمكان سوى جدار واحد نستند إليه جميعاً

لم يكن للمكان .. سقف

ولم نكن نحن إلا .. واحداً

جمعت أحلامي ونثرتها فى الأرجاء وأنا أصرخ :

الرافضون وجودي لا يملكون مقاعد ..

لا يملكون الأرض ... ، ،

أحمد إسماعيل اسماعيل

عشاء الهروب

لم يكن المكان مكتظاً بأحد .. ولم يكن للمكان سوي جدار واحد نستند إليه جميعاً ، لم يكن للمكان سقف ، ولم نكن نحن إلا واحداً حيث جئت مبكراً عنهم فلم يغشانى النوم منذ الحلم الأخير ، سعيت إلى اللقاء قبل موعده فلا بأس من الانتظار والتمتع باستعادة الحلم استندت إلى الجدار بظهرى حتى استلقيت على الأرض ، تساقط بصاق الغفلة على وجهى .. لم أهتم .

غشيني الفعل مرة أخرى ، الجميع يفسحون لى الطريق ، أكثر من دليل يتقدمني إلى حجرة الرجل المنتظر ، وأنا فى عظمة المنقذ أتقدم، قالوا إنه الرئيس إنه القمة وقلت أنا المخلص أنا الكشف .

لم يكن الطريق طويلاً وإنما كان صاعداً دون درج ، اقتربنا من الباب حتى توقفنا أمامه فى صمت وإذا به يفتح إلى أعلى ليصدمني صوت نظامي آمر .

- تقدم يا سيدي

تقدمت بينما تسمر الباقون ، ولجت إلى داخل الغرفة ، ليس إلا شموع بالأركان عالية وفى الوسط مائدة عليها لحم لونه غريب أظنه لبقرة صفراء .. بحثت بنظرى عن صاحب الصوت الذى استقبلني فإذا به شخص باهت الملامح يقف فى المواجهة تماماً متجمداً بين شمعتين وفى منتصف السقف تماماً ماعون زجاجي شفاف يتقطر منه شراب لونه أحمر كالدم .. عاد الصوت .

- تقدم سيدي .. لا تخش أن تبتل من منقوع الدم القدسى .

تقدمت محترساً .. صرخ الصوت .

- أين الخبز الفطير ؟

- إنهم يهرولون به أيها الحبر الأعظم .

- لا أراهم .

- إنهم لم يعبروا بعد البحر

- وكيف ينتظر هذا المستلقى إلى الجدار الأرض ؟

قلت متسائلاً فى تلعثم .

- هل هو الخروج هرباً ؟

اتسعت عينا الحبر الأعظم وبدت الثعابين تتلوي فى احمرارها ، صرخ بعصبية .

- انظر هل أختمر ؟

- لا أظن .

- أنت أيها الذبيح القدسى هيا إلى المائدة حتى نبدأ طقوس العشاء الردئ .

قلت فى هدوء الواثق – أين الرئيس ؟

فجأة انطفأت الشموع جميعها .. وانصفق الباب من خلفى .. وانفجر الماعون المعلق فى السقف .. صرخت رعباً .. فإذا بعصى تهش على كتفى وصوت (أنا الرئيس) عدوت إلى الجدار فإذا أنا فى نفس المكان والجدار الواحد دونما سقف حيث لم نكن إلا واحداً .

لا أنام

لم أصدقه فى بادئ الأمر وهو يؤكد لى بإصرار أنه لا ينام مطلقاً ابتسمت منه ساخراً ، ورفعت يدي فى وجهه محذراً .. لست غبياً ولكنه عاد يؤكد لى أنه لا ينام مطلقاً .

كان الوقت ليلاً غارقاً فى الليل اللذيذ ، والغرفة مظلمة إلا من شعاع باهت ينفذ من تحت عقب الباب المغلق ، والنافذة صماء لا ينفذ منها صوت ، إنه الوقت الغارق فى الوقت السراب ، عاد يحاورني .

- والأهم من ذلك يا عزيزي أنى أعيش عالماً آخر مختلفاً خاصاً بى .
- إنما قصدت شيئاً آخر لن تفهمه .
- كيف ؟
- طاقات أخرى ، شكل آخر .. قدرات أخرى ..

صوت صراخ (بابا .. بابا) انتبهت إنه صوت ابنتى .

- حاضر يا بابا لا تخافى ..

قمت متحسساً طريقى إلى المصباح الشاحن فقد انقطع التيار الكهربائى وأظلمت الشقة تماماً ، كدت أصطدم بالحائط ، ظلام دامس .. تابعت طريقى من الذاكرة حتى وصلت إلى المصباح .. الحمد لله أضأته .. عدت إلى سريرى .

- ماذا كنا نقول .. آه كنا نتحدث عن عالمك الخاص .
- مختلف تماماً عن هذا العالم المرعب المخيف الظالم .
- انتظر يا هذا .. ماذا فى هذا العالم أنت دون شك تهذى .
- ما رأيك تأتي معى الآن نخرج من عالمكم قليلاً إلى عالمي .

أحسست بلكزة فى جنبى وصوت (اعتدل صوت شخيرك يعلو) قلت فى نفسى (ما هذه الخرفانة .. هيا يا صديقى) .

وانطلقنا معاً على بساط من غيوم تدكها أقدامنا دكا نعبر فى عناد إلى حيث يصطحبني حتى انتهت بنا إلى ميدان فسيح يعج بالخيول العربية الاصيله يعتليها فرسان عمالقة مدججون بالسيوف والرماح الطويلة والدروع ، وإذا بى فى منتصف الميدان والفرسان يحيطوننى من كل صوب ، يرفعون سيوفهم ويهتفون (لم أفهم ماذا يقولون) كأنهم يطالبوني بشئ ، وقع فى يدي ماذا أفعل .. تسمرت فى مكاني ، وإذا بى أحمل على الأعناق ، ياله من شعور

عظيم ، سكتت كل الأصوات وعم الصمت واصطفت الفرسان فى سكون وترقب ، نظرت غليهم من عليائى وأدركت ما ينتظرون .. وقفت فى عظمة وخيلاء وبدأت بالكلام .

- أنا الناصر .. لقد ولدتنا أمهاتنا أحراراً .. البحر من ورائكم والعدو أمامكم أين المفر .. ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة .

بدأت الفرسان تزأر والسيوف تلمع والرماح تعلو ، اشرت بيدي..

- لسنا دعاة حرب .. إننا دعاة سلام .

سقط البايب من يدي .. وأحسست بلكزة عنيفة فى جنبى وصوت امرأة .

- صوت شخيرك لا يطاق ، اعتدل طهقت متك .

- حاضر

انقلبت إلى الجانب الآخر ، لم أجد الفرسان بهذه الناحية لقد ظلمتنى الشمطاء وسلبتني جنودي .. أخذت فى دهاء ومكر أحاول الرجوع إلى الجانب الأول ومعي صديقى يكتم أنفاسه وإذا بى أشعر بفراغ من تحته ، أيقنت أنه سوف يسقط ، لم أستطع إمساكه ، سقط وإذا به يصرخ متألماً .. مابك .. (هذا الأسفلت مشتعل) ..

دققت النظر فإذا به فعلا متوهج يتصاعد منه الدخان ، شردت بنظرى بعيداً بين قدميا فإذا بأشلاء بشرية متفحمة تخرج منها

آنات .. وكراريس مبعثرة ممزقة تتطاير أوراقها .. صرخت فزعاً في صديقي (انهض .. انهض بسرعة أين تراك سقطت ؟

- أعطني يدك

مددت يدى إليه أتحسسه فإذا بصوت نسائى

- يا راجل اهمد

تعجبت .. كيف تغير صوت صديقى هكذا .. حاولت أن أجذبه لم أقدر .. اعتدلت ناحيته ومددت يدي الثانية احتضنته وتشبثت به وهممت برفعه .. وإذا بصرخة (يا راجل يا منيل اتهد ونام) لم أعبأ بهذا الهراء .. قلت وأنا أستجمع كل قواى وأرفعه .

- نحن دعاة سلام .

فإذا بها فوقى .. وإذا بماء بارد ينساب على رأسى من زجاجة الماء المثلج التى أتركها بجوار فراشى كل ليلة ...

أغنية الوهم الجميل

أنقضى هذا الصباح ، أنهكه الوقوف الممل فى طابور العاطلين ، أصابه الضيق والملل ، وندم على ترك النوم ، وها هو مرة أخرى يجتر آلامه فى غرفته بعد يوم شاق دون طائل .

- كان يحب النوم .. لأنه يحب الأحلام .

- لماذا لا تعيش الواقع .. تواجهه ..

- لأننى أعمي ..

- أراك مبصراً

- أعمي عن عالمكم .. لا أراه .. عن واقعكم لا أحبه .

- وكيف تعيش أذن

- لى عالمى .. داخلى عالمي الذى أعشقه وأصنعه وأحرك شخوصه .

- ماذا فى داخلك .

– كان يحب النوم لأنه يحب الأحلام .. وكانت أحلامه كثيرة وكانت كل عالمه وما دونها عدم وكان ينام فى حديقته الغناء فتنحني له الأزهار تقبله ويتجمهر النرجس يهش عنه الأرق والفل يقيم حفله الأبيض راقصاً فوق أنفه ويرفع عباد الشمس رأسه إلى السماء يغني والطيور تردد خلفه :

نام .. نام .. وادبح لك جوزين حمام

نام .. نام .. وادبح لك جوزين حمام

ثم تأتي زهرزاد فى نفس الميعاد وتجلس القرفصاء وتبدأ حكايات الوفاء بحرف الفاء " بلغني أيها الفارس الفريد أن فرقع لوز فاته الفوز فانفلت إلى أمه فزعاً فأطلقت البخور فى فرن مسحور وأشارت له أن دور حتى إذا بلغ الحديقة وأدركته الحقيقة ..

– أخي .. سامحك الله ، رائحة المرحاض تملأ أنفى منذ جلست ما أكاد أضرب صرصاراً إلا ويظهر غيره من تحت وسادتك أو من خلف كرسيك ، قبل أن أدخل توقفت فزعاً من الفئران أمام الباب ، ثم هذا العنكبوت الذى يحتل المكان ، عش يا أخي الواقع .

(أصوات طرقات على الباب)

– قم افتح

تزايدت الطرقات على الباب .. قام متثاقلاً

– من ؟

- أفتح

مد يده وفتح الباب .. صوت غليظ

- أين هو ؟

- كان هنا

- لا أحد هنا .. أنت بمفردك

- لقد كان يحدثني توا

- من الذى كان يحدثك ؟

- هو

- هو من ؟

- لا أعرف

- وهل تجلس تتحدث فى غرفتك مع من لا تعرف ؟

- نعم لا أعرف

- وكيف دخل إليك ؟

- لم يدخل

- وكيف خرج ؟

- عندما طرقتم الباب ناداني كي أفتح ثم اختفى .. أنت تريده ؟

- نعم أريدك أنت .. هيا ارتد ملابسك وتعال معنا .

- أنا أرتدي كلا ملابسى

- أين حذاؤك ؟

- لا حاجة لى به .

- إذن هيا

- إلى أين ؟

- ستعرف فوراً ..

سحبه للخارج حيث تقف عربة حنطور تلفها الزهور يجرها أسدان ويحرسها فُرسان يرتدون الخوذ الذهبية الموشاة بالدرر والجواهر والبذلة العسكرية المطرزة بالقصب والياقوت .. ويمتشقون سيوفاً تبرق كحبات الماس .. صعد إلى العربة فإذا بزهر زاد تفتح ذراعيها .. حبيبى ..مرحباً .. ثم تتحرك العربة فى موكبها السحرى والطيور مع الأزهار تغني :

نام .. نام وادبح لك جوزين حمام

نام نام وادبح لك جوزين حمام

مستحيل

لم يكن الميت قد مات .. والعربة الكارو تسد مدخل البيت الطوبى وتحمل (الخشبة) والضاحكون فى الفراغ ينتظرون .. بينما (المغسل) يتوضأ من الزير ..

طرقت الباب .. فلم يرد أحد .. أدركت خطأي .. لابد إذن من الجرس الكهربائى .. ضغطت الجرس .. وانتظرت برهة وإذا بصوت يسألني .. من أنت ؟ .. تطلعت إلى الجرس الناطق مذهولاً قلت أنا الميت .. رد .. ذهبوا هناك لا أحد هنا غير القائمين على حصر ديونه .. اذهب .

- أي طريق ؟

- كان حالماً مقتزاً لا ينام أمام أحد من أهل بيته .

- إنه طريق شاق

واتجهت أشيعه وأنا كاره ..

بعد مشقة .. اقتربت .. وصلت .ز

- ما هذا .. اضرب هنا .. لا فائدة .. انتقل بضع خطوات .. هنا .. اضرب .. اشدد من عزيمتك يا رجل .. لا فائدة .

- صخور .. صخور .. صخور

الميت يبتسم .. صرخت عجوز

- الحسنة .

- اضرب هناك .. نعم هناك ولا تجعل حبات العرق المتساقطة منك تلمس الأرض إنها هي السبب .. مرة أخرى .. مرة أخرى لا فائدة .

صرخت العجوز :

- الحسنة .

لم أر الطير وهو يحاول بمنقاره فى الأرض الصخرية .. ولكنني سمعت السؤال (كيف نوارى سوءة أخى) ورأيته منزعجاً إذ راح يحلق مبتعداً مرتعباً ..

لم يكن ثمة هواء يكفينا .. والشمس حاضرة الجنازة مجاملة .

- ما الأمر ؟

- لا شق ننفذ منه

والجثمان يضحك

- الأرض ترفضه

صرخت العجوز (وجدتها .. وجدتها)

انتبه الجميع وابتأس الجثمان .

- ماذا ؟

- النمل .. انظروا .. إنه ينفذ

- وما شأننا

- نترك له الجثمان .. هو قادر على نقله قطعة قطعة ..

نظر الجميع إلى الطائر إذ عاد يحلق منزعجاً وهم يحملون الجثمان إلى ثقب النمل ويرفعون الأربطة .

جلست وحيداً والشمس سقطت فى بقعة من الدم البرتقالى .. أشرت لها (وداعا ..) .

- لماذا أنت هنا

- لم ينته الليل بعد

- بقى وقت طويل

- النمل لا يعرف الملل

- أتدرى ما قوته

- ما قوته .. ؟

- ملك كل حياتنا حتى الموت ..

- بقى لنا الميلاد

- لا تجعلني أضحك وأنا ميت .. أي ميلاد ؟

- ماذا تعني ؟

- حتى دجاجاتنا لم تعد تبيض .

- اتكلم عن النساء

- لا توجد

- أنت تهذى .. لقد تركت امرأتي فى المنزل

- منذ متى لم تلد

- هي ..

أدركت صحة ما يقول .. امرأتي لن تلد أبداً .. وبدأت انصرف بفكرى إلى حصر أمثالى وأنا أردد .. زوجة فلان لا تلد .. أيضا فلانه لم تلد .. وفلانة .. وفلانة ..

- ماذا تريد قوله

- النمل سيطر على كل شئ .

صرخت منفعلاً (لا .. لا)

- أترفض مافى رأسك .. أم ترفض كلامي

- كلاهما .. كلاهما .. وما العمل ؟

- تمدد بجانبى وارفع عنك الأربطة

- والنتيجة

- فناء الحالمين بلا قوة ..

صرخت وأنا أضرب الغطاء

- لن أحلم مرة أخرى .. مستحيل

مستحيل .. مستحيل ..

قمامة

- الصوت ؟

- نعم وبالمقاييس

- كيف ؟

- تتقدم بالالتماس طالباً إذننا بالدرجة التى ترغبها .

- وبعدين ؟

- تتم الموافقة أو الرفض

- لا أسمعك .. لماذا تهمس ؟

- غير مسموح ، الأذن الممنوح لى بالهمس ونهاراً فقط .

- وماذا فى الليل ؟

- لا صوت

انطلقت ضحكته عالية ثم تماسك

- وشخيرك .. كيف تتحكم فيه إنه صوت ؟

- توقفت عنه

- كيف ؟

- لا أنام

- لا تنام مطلقاً ؟

- لا أستطيع النوم ، يا غريب كاد الليل أن يحل بنا قل كل ما عندك قبل أن ينتهى الإذن لى بالكلام .

صرخ القريب (ظظظظظظظ ....)

وانطلق يجرى إلى وسط الشارع وهو ينادى بصوت جهورى :

- يا حراس الصوت .. اتفوه

سقطت من فمه بعض أسنانه مع البصقة ثم انسابت بعض خيوط من الدم من فمه ، ثم تدلى نصف لسانه مهتزئ .. لم يسكت حاول أن يبصق مرة أخرى سقطت باقى أسنانه على الأسفلت كحبات اللؤلؤ تلمع ، ثم فكه وضبته وبعض عروق الرقبة .. ثم سقط ممداً فى وسط الشارع دون حراك ..

بعد قليل من الوقت اقتربت حافلة صماء ، مدت خرطوم الشفط إليه ، شفطته وانطلقت مكتوب باللوحة الخلفية (قمامة) .

كان السيد يجمع أغراضاً من يدي الحارس مناشداً إياه أن يتركه يرحل إلى حيث يريد ، بينما كان العبد على الرصيف الآخر يشترى لحبيبته زهوراً نرجسية .

صرخ العبد مناديا :

- أيها الكلب .. هيا أسرع

اضطرب السيد وكادت الأغراض تسقط منه ، رد فى وجل :

- أمرك يا عبدى .

قهقهه الحارس ثم قبض السيد من جلبابه الممزق قائلا :

- لن أعطيك زيادة .. هيا انصرف

هرول السيد فى اضطراب وخوف إلى العبد إذ بادره

- لك حاسة شم نادرة أيها الكلب ، قل لى أهذه زهور نرجسية ؟

اقترب السيد بأنفه :

- نعم يا عبدي إلا واحدة .

- أيهم ؟

- هذه الضاحكة لك فى الوسط

- أخرجها الملعونة .

- لا أستطيع .

- كيف لا تستطيع ؟

- أخاف أن تلوثها يدايا القذرتان يا عبدى

- أيها الكلب اللعين مما تلوثت يداك ؟

- كنت ألتقط فضلات الحارس .

- ولماذا ؟

- هو أمرني بذلك .

سحب العبد سوطه وأطلقه فى الهواء يفرقع فى حين تقوقع تحت قدميه السيد فزعاً طالباً الرحمة وتجمعت طيور النسر هابطة من كل صوب على أكتاف العبيد فى الميدان بينما ركع السادة جميعاً خوفاً وهلعاً ، وإذا بالمنادى يخرج من بين أكداس الهموم فى قلب الميدان يعلن .

- على السادة الكلاب الفداء حيث غضب العبد وثأر .. لن تطير النسور إلى عليائها إلا إذا ضحي بأحدهم تنهشه . أكرر على السادة الكلاب التضحية .

خارت قواهم جميعاً وتعلقوا بأقدام عبيدهم يتطلعون فى شفقة ومذلة بينما كانت أضلاع الليل تتمدد فى الأنحاء وبدت السماء شاخصة فى عجب إذ بادرت النجوم أيضا بالهبوط متتاليات والوقوف على أكتاف العبيد بينما ازداد السادة هلعاً .. تقدم الحارس إلى وسط الميدان وأعلن .

- من يأكل فضلاتي ينجو من الذبح .

اندفع السادة إلى قلب الميدان يتجمعون فى حلقة ويشبكون أيديهم معاً وهم يرددون فى لحن جنائزى ..

- ظن نفسه سينفذ دون سلطان - فإذا به يتسلطن دون نفوذ .

بينما ارتفعت أصوات فرقعات فوق رؤوسهم كأنها لحن الخلود .

خيشة والغربان

فى الترحال فوائد جمة وأنا أعشق المجهول ورفقة الغرباء ، بدأت الطريق بمفردي وعند أول منحنى قابلني صديقى اللدود (خيشة) وصحبني دونما تحية ، بعد قليل من الصمت تكلم .

- ألم تسجن من قبل ؟

اندهشت ونظرت إليه .. تابع ضاحكاً

- ستسجن قريباً

لم أنطق فقد كنت أفكر فيما يقوله هذا المعتوه

- لماذا لا تتكلم ، سوف آخذك إلى القرية السجن ما رأيك ؟

قلدته ساخراً

- ما رأيك أنت ؟

ضحكنا وتابعنا السير ، شرد كل منا فى أفكاره وشردت فى القرية السجن ما المعني .. وهل هي موجودة فعلا أم محض خيال ..

سألته .. إلى أين ؟ .. أشار بيده وهو يقول .. هناك تطلعت على مدي البصر أمامي تبدو الأشجار عالية شاهقة ساكنة دون حراك إلا من بعض طيور سوداء تدخلها وتخرج منها ، لم أتبين نوعها رغم أنني كنت أسمع صراخ الغربان يأتي من بعيد كأنات من الوهم .

- اقتربنا .. هل معك أشياء ممنوعة ؟

قلت ضاحكا - نعم .. أنت

ابتسم - لا أقصد هزلاً .. فقط أنبهك لأننا عند عبورنا سيقوم الحرس بالتفتيش .

قلت فى لامبالاة - شئ عادى .

اقتربنا أكثر ، وبدأت تعتريني الدهشة والانزعاج ، فعلا قوات حراسة وباب حديدى ضيق ، وكلاب ضخمة مرعبة ، توقفت فزعاً مستغرباً ، همس (خيشة) وهو يسحبني من يدي .. لا تتوقف .. تابعت السير فى ارتباك واضح ، دوت صيحة عسكرية .

- قف .

قال خيشة - أنا ؟

- لا .. هذا المرتبك بجوارك .

إنه يقصدني ، توقفت .. اقترب الحارس يتبعه آخر .. وثالث من بعيد كان جالساً هب واقفاً واضعاً يده على سلاحه ببطء ، أدركت خطورة الموقف ابتعد عنى خيشة واختفى .

- ماذا تحمل ؟

- أين (مددت يديا الفارغتين أمامي) .. لاشئ .

- لا ليس فى يديك ، ماذا تحمل .. انت مرتبك لأنك تحمل شيئاً

سمعت خطوات من خلفى تقترب ، لمحت بطرف عيني ، حارساً رابعاً يتقدم نحوى من الخلف .

- عَمَّ تبحثون ؟

- اللعنة

- أية لعنة .. أنا لا أحمل غير فضولى

انتفض الحارس الثالث وأخرج سلاحه وهو يصيح

- إنه هو ، الفضول جزء من اللعنة .

أصابني بعض الخوف

- أنا لا أفهم

- أنت الذى أدخلت اللعنة إلى هذه القرية البائسة

فجأة دوت صرخات الغربان عالية وإذا بها تخرج من بين فروع الأشجار جماعات سوداء تنعق وتدور فى حلقات فوق رؤسنا ، أدركني الخوف القاتل فى حين التف الحراس يطوقونني صرخت .. ما هذا .. فإذا بهم يحملونني حملا ويسيرون بى لا أدرى إلى أين بينما تناول أحدهم هاتفه اللاسلكى وهو يصيح إشارة .. إشارة .. تمام يا أفندم وجدنا معه " فضول " .. تمام يا افندم ..

وإذا بى أمام باب غرفة تشبه الصندوق وعليها يافطة بخط ردئ.. (سجن) .. فتح الباب ونظرت للداخل فلم أرَ شيئاً مظلمة تماماً ، تسمرت مكاني وإذا بقدم عسكرية تضربني فى ظهرى وتقذفني إلى داخل الغرفة ثم يغلق الباب .. حاولت القيام من الأرض متحسساً موضعي ، وإذا بصوت يحدثني :

- أهلا

- من ؟

- لا يهم

- أنا لا أرى شيئاً ..

- سوف تتعود عيناك الظلمة وترى بعد قليل.. ماذا قلت لهم؟

- من أنت أولا ؟

- أنا .. أنا

- صوتك ليس غريباً .. هل تعرفنى ؟

- لا يهم إنما أنا ناصحك .. لوجه الله .. هذه القرية ملعونة لا خير يأتيها إلا شربته الأرض فى أيام معدودات ، تسكنها الغربان نهاراً والبوم ليلا ، وها كل عام اضحية من أهلها تزف إلى الأسفلت حيث تسحق ، وتشرب الأرض وترتوي .

- ولماذا ؟

- إنها اللعنة .

- أطرقت أفكر بينما سكت صوت محدثى ، عجباً فهو أمر غريب ما سر هذه القرية أهي القرية الظالم أهلها .. ثم ما أنا فاعل ؟ أخذت أقلب الأمر إلى أن برقت بخاطرى فكرة خاطفة قلبتها فى ذهني قليلاً فوجدت فيها السبيل الوحيد لخلاصى ، تحدثت إلى زميلى

- قل لى .. هل تعرف أهل هذه القرية جيداً ؟

لم يرد

- يا زميلى .. (لارد)

أصغيت لعلى أسمع صوت أنفاسه فلا شئ ولا حركة وكأننى كنت أجلس أتحدث مع لاشئ . إذن لا مناص من تنفيذ الفكرة ، قمت من جلستي متجها إلى الباب وأخذت أطرقه وأنا أصيح .

- يا حراس .. أريد أن أعترف .. أريد الاعتراف

مر الوقت بطيئا وأنا مُنصتٌ أترقب ردا ولا شئ .. أعدت النداء مرة أخرى بصوت أعلى وطرقات أعلى من الباب .. وفجأة انفتح الباب على مصراعيه .. صدمني الضوء المبهر .. نكست رأسى واتجهت خارجاً فى بطء وأنا أرفع عينيا شيئاً فشيئاً فإذا بى أرى وكأنها قاعة محاكمة بابها هو باب زنزانتى ، يجلس فى المواجهة على المنصة أشخاص كثيرون يتوسطهم شخص يرتدي بذلة عسكرية تزدحم عليها النياشين انتبهت .. صوت آمر .. تقدم .. تقدمت عدة خطوات .. عاد الصوت قف .. توقفت .. وأنا أنظر إلى المنصة متفحصاً ، هؤلاء الأشخاص أعرفهم جميعاً ، أرى دائما فى

الصحف صورهم ، ولكن لا أتذكر أسماءهم ..

- لماذا تريد أن تعترف .. تكلم بصوت عالٍ واضح

هذا الصوت أعرفه جيداً إنه صوت محدثي في الزنزانة .. ما الأمر اقتربت من المنصة خطوة واحدة صرخ الحرس .. قف .. رفعت يديا مستسلماً وتسمرت مكاني .. دققت النظر في المنصة ولشد ما كانت دهشتي .. صاحب البذلة العسكرية (خيشة) زميل الرحلة الملعونة .. أدركت أنني قد أطبق على وأنني الضحية جمعت أطراف شجاعتي وبدأت أتكلم .

- أيها الرئيس .. (ابتسم فخوراً وهو ينظر إلى نياشينه) .. اللعنة هي فعل الأقوى وأنا ضعيف .. فعل القادر وأنا عاجز فعل الكاره وأنا محب متيم للتراب .. واللعنة حصاد قلوب وضمائر عمرت بالحقد والخبث والشر والفحش والحرام وتغييب العقول ناهيك عن الكذب وأكل الحقوق .. فكيف يعقل يا سيدي أن أحملها وحدي إلى هذه القرية .

اعتدل (خيشة) في جلسته وهو يقول :

- لك شركاء .. حمالون .. زد المحكمة إيضاحاً

- الحقيقة يا سيدي أن حاملي اللعنة كثيرون .

- من هم اعترف ؟

- أنتم .. أهل هذه القرية جميعاً دون استثناء .. من شارك

بفحشه ومن شارك بصمته ..

- اخرس نحن لم نحمل شيئاً .. ولم يشارك أحد منا .. أنت المتهم الوحيد وإذا لم تكن فأنت الضحية .. مداولة .. مداولة ..

بدأت المداولة على المنصة وبدأت الإشارات والإيماءات والاختلافات ثم تطور الأمر إلى ارتفاع الأصوات فى عصبية .. ثم قيام أحدهم من مقعده متوعداً ومهدداً فى صراخ لا تفسير له .. هرول الحراس جميعاً إلى المنصة فى حين ارتفع أحد الكراسى عالياً .. ثم طلقات رصاص أدركت أن الكل مشغول عني ، أدرت ظهرى لهم جميعاً وتفلت عائداً إلى الباب الحديدي حيث لا حرس والكلاب لا تهتم .. ثم عبرت إلى الجانب الآخر مبتعداً عن الأشجار العالية ونعيق الغربان ..

وساد النمل

خرجت كلماته من بين أسنانه فى ألم

- زيت الزيتون يطبب هذا الوجع الصارخ فى الأحشاء .

هرولت الخالة تتعثر بين الأنقاض .

- إلى أين ؟

- للحقل

- انتظرى .. حظر التجوال ورصاص القنص .

- سأتخفى .. لن أطأ الأرض لا تخش شيئا .

بعدت والوجع يزيد ويشتد .. ما هذا لا أدرى (ظل يحدث نفسه) لم أتناول أي طعام منذ .. لا أتذكر يحتمل منذ حريق كنيس المهد .. آه الوجع يزيد ويشتد والوقت يمر بطيئا ، ينصت لعل الخالة تأتي .. يسمع صوت دبيب أحذية النمل رتيبا منتظما يدنو .. يدون .. يعلو .. يعلو .. حدث نفسه النمل لا يأتي حثيثاً إلا

نحو خلايا العفن .. يعلو الصوت ويقترب .. ضجيج .. يحدث نفسه .. ما هذا أشعر أني أتحرك فى نومى .. وكأن وسادة تبسط تحتى .. أطفو .. وهما .. أشعر أنى أحمل فوق محفة شئ ما يدغدغ جنبيا ، أتحرك دون حراك عجباً وهما .. لا ليس بوهم .. إني محمول فوق الأعناق إلى أين لا أدرى .. يمشى بى الركب بطيئا .. أدخل نفقاً مظلماً بالكاد أحشر حشراً .. أدخل ظلمات .. فى ظلمات ..

يتوقف ركب النمل داخل النفق .. وتنسحب وسادته من تحته ويرسو فوق الرمال غير مصدق ، راح يتحسس ما حوله بيده ، رمال رطبة تنقلت يداه تبحث .. لمست خصلات من شعر أجعد .. ربطة رأس مزينة بالترتر .. بدأ يتحقق فى انفعال ثم تأكد صرخ .. يا ويلى رأس الخالة .. عاد يتحقق .. رفع يده نحو الوجه .. بضعة دمعات .. انتبه النمل لحركته أسرع واكتظ على يده وتكاثر فى شراسة مسقطاً إياها إلى جانبه .. ثم اتجه يدب إلى الرقبة حيث تكدس كالطوق وراح يضغط ويضغط حتى سكنت حركته تماما ..

بقايا آثام

لله يا محسنين .. لله يا أحبابه .

كان الصوت خفيضا واهنا تتقاطر أحرفه مفككة لاهثة ، والوقت قبل بزوغ الفجر بقليل ، حيث تتناثر قطرات الندي تخترق عبق الأزهار وأريجها الفواح بينما الحور العين قائمات فى سكينة يجهزن الأيك للنهار القادم .

مددت يدي أناوله نصيبه وأنا ممدد فى فراشى مستدفئا كسولا ، بينما تقوم الحور العين تحت أقدامي فى انتظار يقظتى .

- خذ يا رجل .. (نظر لما فى يدي ثم ارتد للخلف)

- لا أستطيع

قلت مستغرب رفضه

- حمله خفيف

- إنه خفيف لك وليس لى

- كيف ؟

- إنه عملك

- يا رجل لقد قبضت لك من ميزان أعمالى الخيرة قبضة تقيم أودك الدهر كله وأنت ترفضها .

- يا سيدي أنا لا أرفضها إنما أنا لم أطلبها لذا لا أستطيع أخذها . أدركت أنه شره للحوار والجدل وبى شوق للنوم والكسل ، أشرت إلى الجارية أن شدي الأغطية على قدميا ، وبدأت أذهب إلى غفوة .

وإذا بى أسمع صوتاً عذباً رقيقاً ينساب شجيا إلى مسمعي .

سيدي أبك شوق للغناء ؟ أم أهش الأفكار الساقطة على رأسك تؤرقك ، أم أمسح جبينك بشفاهي أرطبه لك ؟

تمتمت فى تثاقل المشتاق .

غني لى .. غنى دون أن تلمسني شفاهك .

بدأت بصوتها الملائكى العذب تغني (يا ملاكا زرت يوماً أيكه..) لم تكتمل إذ بصوت مزعج يتقاطر مقاطعا غناءها .

- لله يا محسنين ..

امتلكني الغضب وانتفضت من نومتي جالسا ، وإذا بالحور العين يصبن بالذعر فيتكالبن على فراشى باكيات صارخات فى رجاء وتوسل

- لا تغضب .. نرجوك لا تغضب .. لاتنزعج .

- أين هذا الرجل المزعج ؟

وكأنه كان ينتظر أن أسأل عنه .

- أنا هنا

- ألم أنتهي منك ، طلبت الحسنة وأعطيناك فرفضت .

- لم تعطني شيئا

- أنت الذى رفضت أن تأخذ

- وكيف آخذ ما لم أطلبه ؟

- ألم تطلب لله ؟

- نعم

- أعطيتك ما أقدمه أنا لله ، عملا طيبا صالحا

- وماذا يفيدني

- أقل القليل ثواب حمل الخير

- وما أدراك .. ؟

- اسمع يا رجل (قمت معتدلاً فى فراشى وأنا أقاوم فكرة تلمع..)

- نعم

- أتأخذ إحدي جوارى حسنة وعطاء .. ؟

- لا بأس

- أيها المراوغ ظهرت نواياك ..

- لا ياسيدي لست كذلك فأنا اخترت ذات الصوت الشجى حتى تكفيني مشقة النداء وفى النوم تغني لى .

- وكيف تقيم أودك ؟

- لا بأس من أخذ هذه الجالسة تحت قدميك تنتظر يقظتك لتعد لك فطورك .

- وإن كانت بك حاجة ..

- لا بأس من أخذ الأخرى تؤدي حاجتى .

- وما تترك لى ؟

- وما لى بك ، أنت تؤدي لله وتنال مقابل ذلك حسنات وأنا آخذ لله وأكمل لك عملك الطيب الصالح .

أدركت أنني لن أستطيع صبرا أطول على هذا الرجل حاولت التماسك وأنا أفكر فيما أفعله معه ، بينما هو يتململ وعلى وجهه ظل ابتسامة وجدت نفسى أهب واقفا وأنفض عني الفراش وأناوله إياه وأخطف عصاته وأمضى متوكئاً عليها أنادي .

- لله يا محسنين .. لله يا أحبابه .

عيون رملية

ساكن لا يتحرك ، طالت جلسته فوق تبة الرمال الندية فى طرف المخيم صبى يافع العود نحيل حاد القسمات ، والوقت ساكن خلف ظلام دامس ، ولا شئ ينم عن الحياة سوي قبلات الريح الساخنة على سفح الرمال من الحين للحين ، إذ تترك خيوطاً متعرجة تطاردها لتعلق بها فلا تقدر ، والقمر مختبئ خلف عباءة من السحب السميكة يبدو وكأنه يتلصص على ما يحدث إذ سرعان ما يتخفى ليعود مرة أخرى .

عيناه تحجرتا على لا شئ فى السديم المترامي بالأفق ، وقسمات وجهه حادة جامدة لا تليق ولا تتناسب وعمره الوردي ، فجأة مد يده وبدأ ينبش بإصبعه فى الرمال يرسم وجها دائرياً وعينين بوهيميتين وفماً وشفتين غليظتين ثم بدأ فى رسم الرقبة وإصبعه يضغط بعنف وفجأة تصلبت يده وأخذ يضرب بقبضته الرمال فى ثورة عدة مرات متتالية وكأنه ينتقم من الوجه الذى رسمه .. ثم تنبه

لما يفعل فتوقف قابضا يديه حول رأسه .. ساكنا .

مر الوقت بطيئا والقمر مازال يتلصص من خلف السحب .. رفع رأسه إلى السماء وكأنه يتوسل منها شيئاً ما .. خرج القمر من خلف السحابة يحملق .. شعر به الصبى .. نظر إليه شذراً .. اغرب عني .. عد إلى مخبئك .. وانعكست على وجنتيه دمعات تبرق .. تشجع القمر وخرج كاملاً .. صرخ الصبى .. ابتعد .. اغرب عني .. لن تمنعني .. ابتعد .. هذه الليلة لى .. أريدها غارقة فى الظلمة فى السكون ، فى الرهبة ، فى الوحدة .. ابتعد .

مد القمر لسانه جاذباً طرف سحابة واختفى خلفها حزينا وعم الظلام تنهد الصبى .. نعم هكذا .. ، ثم عاد ينبش بإصبعه مرة أخرى فى الرمال يرسم وجهاً آخر ، ولكنه هذه المرة وجة أنثوىّ ضفيرتان وفم صغير ، وعندما انتهى أخذ يتمتم بالغناء (من زمان .. كان فيه صبى .. يجئ من الأحراش .. ألعب أنا وياه ..) التمعت العينان فى الرسم على الرمال وتطايرت الضفيرتان وإذ بصوت ملائكي ينطلق فى عذوبة (أنا وشادي غنينا سوا .. لعبنا على الطل وركضنا باهوى) انتفض الصبى مذهولا ، لم يصدق ما يراه على الرمال وما يسمعه ، شعر بحبيبته جاءت .. خاف أن تكشف سره ، قميصه المفتوح وصدره العارى وهذا الحزام العريض حول وسطه ، أدرك أن أمره سوف ينكشف ، أسرع مُحاولاً إغلاق أزرار القميص لم يطاوعه من فوق الحزام ، حاول فى استماتة وإذ بصوت

حبيبته (شادى ركض " يتفجر " .. خفت وسرت انده له .. وينك رايح يا شادي) .. وتلعثم الصوت العذب وبدا كأنه يتحشرج خلف البكاء وهو يعلو (ضاع شاااااااادى ...) .

دوى الغيظ

بعد صلاة الفجر عاد وحيداً إلى غرفته ، كان البرد قارصاً يضرب فى الأوصال ويعلق بالجدران ويتقطر ثلجاً شمعياً فوق نتوءات الهم على وجهه ، صبى كالزهرة الفيحاء أنهكها النحل ، جلس يصارع فكرا ثار أثناء صلاة الفجر وبعدها ، قال الشيخ :

- هذا الزمن الموغل فى الزيف يشبه عهداً وثنيا .. والخالق فى مثل الأزمان ينزل من ينذر من يهدي من ينقذ .. حاشا لله وصلاة وتسليما على نبيه الخاتم .

مد يده إلى الشمعة فى الصحن وقربها إليه ، يطلب دفأ ، هف الشمعة طمعا أن تتوهج أكثر ، ونزيف الفكر يتقطر من عينيه ويضوى .. انفصم القيد .. وتداعت قيم ، أخلاق وتغير حتى قياس الفهم وسمعنا عن نسب تنسب للتفسير وللتعليل لدحض الحق وتثبيت الباطل .. حجج ومواثيق تبيح النهب .

- لا تتفلسف .. لا تتعد حدودك .. تطلق أحكاما دون دليل .

- أنت مرة أخرى .

- أنت دائما

- لماذا لا تأتي إلا فى الظلمات

- لأني أحبك وأنت لا تحتاجني إلا فى الليل .

- ترتجف ؟

- أبحث لى عن دفء .. قد لا آتيك مرة أخرى .

يفهم أن النفخ بقبض اليد يدفئ أكثر ، ينفخ والغرفة باردة جدا والظلمة تسخر إذ تتكثف فى الأركان وتضحك ، والشمعة تخفت .. تخفت .. اندفع يهف الضوء الشاحب أكثر .. أكثر .. انطفأت تمتم (بشرة خير) طاف بذهنه نار المجوس وهي تخمد وقت ميلاد نبى الرحمة .. تمتم وهو شارد (الآن نبي يولد .. ماذا لو كان نبياً من أهلى .. عربيا .. لا .. لا .. حاشا لله) .

مسح بيده طرف مرارات حطت فى ركنى الفم وأطرق إذ انتفخت أوداجه وارتفع الصدر ينوء بأنفاسه .. هم يهف الشمعة فى جب الظلمات خرجت كل الأنفاس تدوى .. نزف .. لم يتوجع .. مات .

خيام ونمل

فى الركن الغارق فى الجنس على خارطة السوق نصبت شراكي أهملت الرعشة واللون الوردي لخجلى وتجاسرت ، قلت لنفسى أشجعها .. مهزوم فى كل قرار .. اليوم أحقق نصرا .

صوت صبى ينادى بضاعته .. (زينة .. زينة) رحت أمدد ظلى فوق نتوءات الرغبة مقتحماً كل العتمة غاصاً حتى أطراف الأذنين .. آه .. آه ما أعظم أن تملك ظلا يتبعك ، يتبعك لا شئ يقبل فى هذا الزمن وهذا السوق أن يتبعك ما أعظم أن تعرف أين ولجت وأنت حين تمر تتفزع أفراخ الطير .. قرفا وترفض كل العتبات خطاك .

صوت صبى – زينة .. زينة .

لبيت نداءه وتركت حذائى الطاهر يرفض أن يدخل ، ظل يرقب من يدخل بعدي .. تهيأت ورحت أمارس حذقى .. فجأة صرخت

بالأمر (توقف ..) قلت (ماذا وطيور الجنة تعزف لحني) قالت (صوت آذان ..)

- هل يتوقف عمل الظل بكل خيام السوق وقت آذان ؟

- ردد (واستر عوراتنا .. واعف عنا .. سبع مرات .. ردد)

- كيف ؟

رفصتتنى بقدميها .. غباء .. زحفتُ بظهرى عنها للركن مندهشا وأنا أتفحص ظلى الرافض وهي تتمتم بالدعوات .. صمت

- أتممت السبع .. ؟

صرخت – اذهب عني .. كيف جرؤت ؟

- لست مقتنعا

- مختلف أنت .. ولماذا ؟

- أملك قوة

- أية قوة .. وحدك ضعف ..كل خيام السوق لا تملك إلا دعاء .

- لا أفهم ..

- لن تفهم هيا .. هيا

يدخل الصبى فزعاً يكتم صرخته .. (النمل .. النمل)

تمددت على الأرض وأخرجت لسانها حتى آخره .. فى حين زحفت أنا بظهرى إلى ركن الخيمة وتوقعت أرقب .. دخل سرب

النمل الطائر محلقا فى سقف الخيمة يطن ثم سقطت نملة تلدغ طرف لسانها ثم أخرى ثم تجمع باقى النمل على الوجه والعينين ..
صرخت فزعا أسرع الصبى يسد فمي بيده وهو يهمس فى أذني (واستر عوراتنا .. واعف عنا ..) .

مساء الخير

نلتف كل مساء حول المذياع ، لا أفهم بعض الكلمات (شهود عيان) .. (البث المرئى) .. والمقهي يبث دخانا من فاه الوجع اليومي إلى الشارع ، والشارع يحمل فتيات الليل بلا حياء .

صوت المذياع (خبر هام ..)

صمتت كركرة الماء بقلب الجوزة وعيون جحظت.

(فى منتصف الليل سقطت أم ..) ....

صرخ الجرسون – يا ستار .. أصبح لكل شئ أم

ضحكت كركرة الماء أشد والتهبت أغطية الفحم وتوهج سقف المقهي .

عاد الصوت (خبر هام ..) .. (العلوج ...)

صرخ نزيل من اقصى المقهي

– حول هذا العار اليومى

امتدت يد الجرسون إلى المذياع وأدارت القرص .. موسيقى .. غناء .. (بحبك يا لبنان ...)

سحب طرف المبسم من فمه قرفا وهو يصرخ مصححا

- يا سلطان .. يا سلطان .. اتفوه .. بحبك يا سلط ... يا سلطان حاول أن يضحك فخرج الدخان فى نفثات متقطعة من بين أسنانه الصدأ ، عاد وحشر المبسم فى فمه وراح يسحب سما عربيا .. وهو يشير إلى المذياع .. حيث امتدت يد الجرسون وأدارت القرص .. صوت :

(... أنت من الثوار يا على ...)

قذف المبسم من فمه فى ثورة وغضب ..

- ما هذا القرف .. ؟

رد الجرسون إنه فيلم ..

غضب أكثر وصرخ

- ثوار إيه يا ....

انتبه الجالسون لصوته وغضبه وتأهب بعضهم للمغادرة ووقف البعض الآخر مستنفراً ينتظر ما سوف يحدث فالكل يعرفون جيدا ما تنتهي إليه الليلة إذا ثار المعلم سلطان .

- يا معلم سلطان إنه فيلم ..

- فيلم .. فيلم .. ولغاية إمتى .. ؟

لم أفهم ما يعنيه .. ولكنني اقتربت منه غير عابئ بما يخرج من فمه من رذاذ ودخان ورائحة فأنا أنتظر كل ليلة هذه اللحظة .. التفت نحوى كالعادة ..

- ثوار ..

صرخ وهو يحمل المقعد ويطيح به فى الهواء بينما أسرع الجميع بالفرار

- يا ولاد الـ ....

أثقال على رقبة الوقت

- لن يمنعني شئ أبدا

- أنصحك لا تذهب بالمرة ، الواقفون غلاظ شداد حمقى ، والجالسون عتاة فى ضلوع من فولاذ .

- والنمل ؟

- فى بيات أزلى .. إذ ما زال الليل جاثما على رقبة الوقت .

- لم يمنعني هذا

- كيف ولم تَتِمَّ بعد أظفارك ؟

- أنت تهذى لأنك لا تعرف

- أعرف ماذا ؟

- لا تعرف قدرات النمل .. سأذهب ..

امتطي راحلته المهمشة الضامرة ، ورفع عصاه هاشا بها على عزيمته ثم انحني على أذن راحلته يصف لها الطريق .. فهمته أخيرا ..

انطلقا فتم صاحبه يودعه (رحمة الله عليك ..) .

عند المنعطف الثلجي حيث الوقت ليلا فقط .. ضربته الظلمة فى صدره ثم مد الليل ستائره السميكة على عينيه .. لم يرتد ولم يتوقف .. بل زاد دفعا لراحلته لتمخر فى عباب الظلمة ، صفر الريح فى أذنيه يسر له بشئ ، تجهم واتسعت عيناه فى عناد ثم مد يده يربت على ظهر راحلته .. (اقتربنا) .

- كيف عرفت ؟

- ألم تسمعي .. انصت ..

- لا شئ .

- إنه صوت أنات ..

سكت وأصغي يتبين جثامة الألم ، وأخذت الدابة تقلل من سرعتها فى حين تبدو فى الظلمة أشباح تولول فى فزع وهي تتناثر فى الوادي الأجدب فلا شجرة قائمة إلا ويتصاعد منها الدخان ، وما من جدار إلا متصدعا أو منهارا .. خراب فى كل مكان ..

حط راحلته واقترب لم يأبه به أحد .. شق طريقه إلى قلب الوادي قاصدا شيئاً بعينه .. توقف أمام عجوز جالسة وسط الحطام تلطم خديها ، نظرت إلى قدميه الحافية .. ورفعت رأسها فلم يجد لها ملامح إذ اختفت خلف الطين والدموع .. ثم عادت وخفضت رأسها فى لامبالاة .. سألها (أين النمل) .. لم تنطق ، ثم رفعت يدها

فجأة وشقت ثوبها من عند الصدر حتى الذيل وهي تصرخ وتولول فى هستيريا بكلمات السباب ..

جلس القرفصاء قبالتها وتركها حتى هدأت ..

- أين النمل .. ؟

- ألم يمنعك أحد ؟

- حاولوا

- الكلاب .. يتشدقون بالكرامة ..

من أتي معك ..

- إنهم فى المولد

- مولد من ؟

- مول سيدي الأهبل ..

- انظر .. (أشارت إلى كومة من النسيج الآدمي المهترئ ملقى على بعد أمتار) أنظر بعض أصابع .. دقق أتعرفها .. حتما

- منذ متى حدث ذلك .

- منذ آخر نهار

- الوقت ؟

- الوقت طويل وكئيب .. وشاق .

انتصب واقفا .. يتجول بعينيه فى المكان ، كأنه يبحث عن شئ

ما وإذا به يتجه مسرعاً فى الظلام كأنه قد رأي ما يبحث عنه .. بضع ملاءات تحت الخطى إلى بركة من الدماء ثم يصطففن .. على حافتها ثم رحن يتلون تراتيل مبهمة .. ثم قفزن فيها معاً .. وأخذن يغطسن ويشربن فى شراهة حتى تعبن .. ثم خرجن يتقطر منهن الدماء

صرخ – انتظرن

أسرعن الخطى إلى طريق العودة

- أريد أن أفهم

أشارت له أخراهن (ليس الآن)

- متي ؟

(أشارت له) اذهب

- إلى أين ؟

أشارت له على بركة الدماء

- إلى متي ؟

قالت :

(اشرب حتى يرفع الليل أثقاله عن رقبة الوقت)

سنابل الجمر

كانت نشرة الأخبار لا تحمل جديداً .. علقت أمي فى عفوية (ضربة على قلبهم) سألتها وأنا أعرف (من) فلقد شعرت بالحاجة إلى من يعطيني القوة والثبات والعقل .. قالت : الظلمة .

نعم يا أمي الظلمة .. رفعت يدها وقبلتها .. قالت (قوم نام) اتجهت إلى الركن المظلم حيث رائحة الوهم الزكية المغذية لحيرتي لا شئ غير الجدران والسقف الخشبى المتهالك وفراشى الأرضى وأنفاسى السريعة .. وأنا ساكنٌ دون حراك إذ وجدتهم يفتشون .. يدخلون إلى الشقوق ويخرجن .. يأخذون بصمات العنكبوتات على الحوائط يسلطون أجهزتهم الدقيقة إلى فراشى ويسجلون .. تململت..

– اجلس

امتثلت للأمر .. عاد الصوت

- لا تنطق .. لا تتحرك .. اكشف غطاء البطن وافتح الصرة فعلت ..

- ما هذا العفن .. ماذا تأكلون .. أين الثلاث أثلاث .. أحديث فقط .. أنا لا أرى الهواء .. أف أف أغلق الصرة .. اغلق فعلت ..

- اخرج حدقة العين اليسرى .

فعلت ...

- ماذا تخفى خلفها .. انظر معي .. ما هذا

صوت آخر – أظنه مكر .. لا .. إنه مشتعل .. هو غضب .

صوت ثالث – لا تعبأ .. هم يغضبون كثيراً ولا يفعلون شيئا .

- إنها ذرات من غضب مشتعل

أتقول ذرات ..

صارخاً – أدخل الحدقة مكانها .. أسرع

فعلت ..

ابتعدو وصعدوا إلى أعلى حيث تجمعت سحابات أنفاسى ، وأخذوا يتحسسونها بأجهزتهم فى حذر ، فى حين أخذت أصفر بفمي فى صوت خافت لجنودي .. وإذ بدبيب للخطو الرتيب يخترق غلالة الصمت ..

- ما هذا ؟

- أين ؟

- تحت ظلمات الخوف

- أظنه نمل

- ماذا ؟

- نمل ذوات دروع .. ينفث جمرا

- صور .. صور ماذا يحمل

- يحمل نابا عبأ جمر الخبث

- احترس .. لنهبط بحرص

- نعم هيا ندخل من حيث خرجنا .

(أسرعت أسد أذنيا بكفيا أمنع هروبهم ..)

لعبة الدفن

دخلت إلى فراشى متعبا ، يوم شاق بلا شك وطويل ، تمددت مرسلا نظراتي إلى سقف الحجرة المظلم ، حين سكنت حركتي هنا إلى سمعني أصوات غريبة ، قريبة وكأنها صوت تحطيم ودبيب أخذت أنصت فى محاولة أن أفهم أو أعرف مصدر الصوت فإذا به فوق مكتبى .. نظرت بعيني .. لا شئ .. ولكن الأصوات تصدر منه قمت من تمددي مستطلعا الأمر .. ولشد ما كانت دهشت إذ رأيت النمل يسعي فوق ورقتى ، خطان من النمل صاعدا هابطا .. صاعدا إلى أعلى الورقة حيث السطور الأولى .. هابطا يحمل أحرفى بالترتيب .. كل نملة حرف .. البعض يعمل فى خلع الحروف من مكانها فى حرص ونظام والبعض يعمل فى تحميل الآخرين بعناية وطابور يصطف ليحمل ثم يهبط ليختفى فى أسفل الورقة .

جلست فى حرص واستغراب .. ما هذا الذى يحدث .. لماذا النمل يسلبني كلماتي .. وماذا يفعل بها .. ولماذا فى ترتيب

وعناية إنه من المحتمل أن يكون ينقلها إلى مكان آخر ثم يتم هناك تجميعها إذن هو يسرقها ..

شعرت بالخوف وبدأت الهواجس والظنون تنتابني وأنا مبهور مندهش لماذا .. لماذا ؟ .. أخذت أتفحص الكلمات وهي تخلع من مكانها

(هذه الرقصة لى

جرعة الموت المعتق فى المرار

اسقنيه اسقنيه اسقنيه)

لم أستطع إكمال القراءة فلقد تكاثر النمل فوق الكلمات ، هربت إلى السطور السفلية وأخذت أقرأ

الملكة ماتت

والشغالات ينسجن الغفلة عميانا

ألقيت قميصى

ورحت أطير بعيداً فارا

من هول البث المرائى)

تكاثر النمل على باقى الكلمات .. وكأنه لاحظ قراءتى فأسرع جاهداً لمنعي صرخت فيه .. ابتعد .. تزايد وكثر .. رحت فى عصبية أصرخ وأحاول إبعاده وهو يتزايد ويتزايد .. ضربت بيدي حتى بدت آخر السطور (الحمام لم يعد أبدا يحط فوق سارية المدينة

والمدينة لا تبيح الموت إلا انفجارا لن ننتهي)

سنجيد حتما رقصة الخوف

على حبل النهار

ونقبل الأسفلت أشلاء بلا زمر ..)

ابتعدت قليلا وأنا أتابع النمل وهو يحمل أحرفى .. فإذا به يسير فى خط متعرج على قائم المكتب الخشبى هابطا إلى الأرض .. ثم يمتد خطه الموصول على الأرض .. قمت من جلستى أتبعه .. ولشد ما كانت دهشتي .. نملات ضخمة سوداء تقف للحراسة بينما النمل العامل ينفذ من تحت عقب الباب الحجرى إلى داخل المدفن .

الموت رميا بالنهيق

البوق يدوي فى طرقات القرية .. " سعدون ينزف ، قص الحلاق له شفة ، حين ارتعشت تحت الموسى شقت ، هل من منقذ ، هل من متبرع ببعض دمائه .

أطلقت شخير النوم الغارق فى أوج اليقظة .. مالى وسعدون هذا الشيخ اليأس منذ وعيت الدنيا ، يجوب حواري القرية دون هدي ليلا ونهارا تتبعه كلابه .

أمي تتكلم فى صحن المنزل ، يأتيني الصوت صارما واضحا :

- لن نعطي دمنا لأحد .. هل تفهم .. لن تخرج .

- لا يمكن .. حرام .. سعدون ينزف (إنه أخي عبد الناصر)

- يأخذ من دم كلابه

- يا أمي أين كلابه .. سأخرج

- لن تخرج وإلا سوف أنادي لك أخاك الكبير ..

راحت تصيح .. يا مهاود .. يا مهاود .. أطلقت شخيرى أعلى أعلى .. فجأة انفتح الباب وهبت ريح غاضبة على فراشى .

يا زفت يا مهاود يا كبير .. اصحي .. لا تتصنع نوما .. نومك طال لا تتصنع بله صمما غيبوبة ..

لكزتني بصدرى وأنا امادي فى تصنع النوم .. صرخت وهي خارجة

- يا ويلى .. يا ويلى .

البوق يدوي فى الطرقات " يا أهل القرية انتشر وباء الغفلة ، ممنوع التجوال تم عزل سعدون بالحجر الصحي ويتم الآن اقتحام محل الحلاق ممنوع التجوال .. ".

حدثت نفسى .. ما هذا الذى يحدث فى القرية ألا يوجد رجال .. انتفضت .. بل يوجد بالقطع .. أخذتني الحمية فقمت متثاقلا أتمتم لا مفر لابد إذن من فعل شئ .. تقدمت إلى صندوق أغراضى الخشبى ورفعت غطاءه غير عابئ بالغبار المتصاعد ولا الرائحة العفنة .. ومددت يدي داخله تناولت الحقيبة الجلد الصغيرة نفضت عنها الغبار وأعدت إغلاق الصندوق برفق .. ثم عزمت وتوكلت .. خرجت من باب غرفتى فإذا بأمي تعترضني .

- ما هذا الذى تحمله تحت إبطك

- حقيبتي

- وإلى أين

- إلى سعدون

- يا مصيبتي .. لماذا

- سوف أخلصه مما هو فيه

- كيف يا مخلص

- بهذه .. (ورفعت الحقيبة فى يدي)

لطمت أمي خديها وأخذت تنوح بخسارتها الفادحة فى أبنائها لم أعرها انتباها وانطلقت فى تصميم حيث قيدت فرسى الأشهب وامتطيته منطلقا إلى حجرة النوم الكبيرة .

- سيدي الرئيس .. وباء الغفلة ينخر فى جدران البيت .. ونزيف الدم من شفة سعدون لا يتوقف .

- من فعل ذلك ؟

- النمل

- وماذا تستطيع أن تفعل ؟

- تأمرني يا سيدي أنفذ .. (وأشرت إلى الحقيبة)

صمت يفكر وأنا منتصب أمامه لا أتحرك .. مر الوقت بطيئا ثم تململ ورفع عينيه تجاهي

- كم يلزمك من الوقت ؟

- ما بقى من الليل

- لا تتعداه

- لا أستطيع

- أفهم .. افهم .. تفضل

انطلقت إلى الخارج .. ووقفت لحظة أنصت .. ما من أحد .. فتحت الحقيبة وأخرجت منها (طاقية الإخفاء) نظرت لها فى اشتياق ثم ارتديتها سريعا فإذا بى لا أرى أطراف أصابعي .. تأكدت من سريان مفعولها وانطلقت قاصدا مطار القرية مخترقا كل الحراسات النملية فى عظمة وخيلاء .. وصلت إلى مهبط المطار حيث تتجمع الحمير والبهائم كل حمار فى مهبطه .. توسطت الـ (رون واي) .. ثم خلعت طاقية الإخفاء .. بدأت البهائم تنتبه لوجودي وتشب برأسها نحوي ، تكلمت

- يجب طرح الخلافات جانبا .. إننا فى موقف عصيب .. والغفلة تعني الموت .. والنمل يتربص بنا .. سوف أتقدم فى المواجهة لا أطلب منكم إلا مؤازرتي .. عندما أشير مهددا بكم تزأرون .. خوار ونهيق .. اتفقنا .

- اتجهت مسرعا إلى برج المراقبة وكلى تصميم وعزم .. وتناولت الميكروفون وأدرت أقراص البث ومكبرات الصوت ..

- أيها النمل لن تخيفنا .. (لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا ولن

نستعبد بعد اليوم) . أمامك حتى بزوغ الفجر .. لتحرر سعدون..

- أكرر أيها النمل إنها الفرصة الأخيرة لتغادر فى سلام .

لا صوت .. صمت تام .. تأهبت للنداء مرة أخرى وإذا بى أسمع دبيب الخطى .. نظرت فاحصا فى الظلام فإذا بها طوابير من النمل فى تشكيلات عسكرية مدججة بأسلحتها متجهة صوب الصوت مددت يدي فى حركة لا إرادية إلى رأسى أتأكد من وجود طاقية الإخفاء .. لا يهم لن يرهبوني .. صرخت

- إنكم تتجهون إلى جهنم .. إلى الجحيم .. أنتم لا تعرفون ما أخبأه لكم .. أنذركم للمرة الأخيرة .

- لم يتوقفوا وإنما زاد صوت دبيبهم المرعب .. مددت يدي مرة أخرى للطاقية .. ثم لا مفر .. لوحت بالإشارة المتفق عليها مع البهائم والحمير .. وفى ثوان بدأ النهيق والخوار عاليا من كل اتجاه فى المطار تنفست الصعداء وزدت افتخارا وثقة .. وأخذت ألهب من حماسهم فيزداد خوارهم ونهيقهم .. والغريب أن النمل المجنون لم يتوقف مازال يتقدم ولم تختل خطواته .. ركبني الرعب فأخذت أساعد بقدر استطاعتي وإذا بصوت يصرخ

- يا مهاود .. يازفت

انتبهت إنها أمي – ماذا .. ؟

- ما هذا النهيق..يا مصيبتي الكبيرة فيكم يا مصيبـ تـ تـ ..ى..

هل تعرف .. أين ؟

فى زحامات الهم تلاقينا .. أفهمته بصعوبة أني لا أملك صوتا وأصابع (أطلق فرحته ، أدهشني) ماذا .. أيضا سلمت لساني .. أومأت .. مازالت قطعان العامة تملك .. وآلى تائه .. من يعرف .. أين ؟! من يقدر حتى أن يطلق حدسا .. فى الطرقات وجوه تحمل سمت بلاهة وشفاه تضحك .. من يعرف أين ؟ سؤال اللحظة فى كل عيون القطعان .

على أسفلت اللوحة فى الركن الخائف منا يجلس فى كنف عجوز، رفع سؤال براءته .

- أين الطابية .. اقتربت يا جدة نبضات الخوف من الملك (كش) ضحكت وهي تداعبه

- الليل الرث رتق أستاره ليمر الفيل .

أدركت ذكاء لا يبدو إلا فى أوقات الضيق

حدثت صديقى .. ولم يسمعني .. وحدثني ولم أفهم .. خرس رغم النبض الصاخب فى عربات الهم .

التفتت ناحيتي فازداد الضغط على أزرار قميص أخيها الأصغر .. تلبسه لماذا – لا أعرف .

- لماذا تنظر ؟

عينايا تقيس مسافات النزوة البضة بين الأزرار

- لا شئ .. أقيس

- ترزي أنت ؟

وانخلع السقف حياء من هول الضحكة

قلت بعينيا

- صديقى هذا مقطوع لسانه وأنا لا أملك صوتا .. كيف فهمت ارتج السقف مرة أخرى .

- لم يبق فى اللوحة غير حصان وعساكر .. مفهوم قولك أبطال أنتم فى أرض المعركة البضة .. والأزرار ورائحة الخمر .

كشفتنا جدا تفهمنا جدا .. (عينا صديقى تحدثني) أليس كذلك أومأت – بلى

قالت : عم تبحث فى جسدي .. هل تعرف أين ؟

- تذاكر

سحنته لا تنبى عن خير .. يمضى محنيا .. ضحكت حتى كادت

أزرار البطن تطق .

- كم زوجة لك .. ؟ والأولاد .. ؟ لا تتذكر .. بقيت واحدة حتى تقبل جبهتك الأرض .

تأفف - تذاكر ياست

قالت فى لذة - أثرتك أليس كذلك .. هل تعرف أين ؟

فتح صديقى فاهه على آخرها وكذلك أنا .. مر دون أن يسألنها تذاكر نطقت قرفا - أحتاج مطهراً .. (تمسح شفتيها بقرف) لم أفهم حركت العسكر للخلف .. وتركت مربعا أسود فخا .. وكتبت بالنوتة رمزاً لا أفهمه .. لم يبق من وقت يذكر حتى نتوقف .. لم يبق إلا أن نحصر كم راكب مات من العسكر .. لكنني وحدي لا أقدر .. باللوحة لاشئ هل تعرف .. أين ؟

وهكذا يبتل فراشه كل ليلة

المشهد الأول :

- سوف أدفعك إلى الحائط مرة أخرى .. ومرت أخر .. وأهشم فيك نبضك الصناعي .. سوف أحمل أضلاعك ضلعا ضلعا إلى أمك .. وأبني داخلك حصنا من خوف

- ماذا يا ابن كبدي .. أناديك مرارا فلا تجيب .

- أحذره يا أمي .

- هل كففت يا وحيدي ..

- هو خائن يا أمي .. ألعب معه فيعتلي الأسوار ولا يخاف ويعبر من نوافذ الحرس إلى أسرة الولاة ولا يخاف .. مثل الشمس يا أمي .. ينفذ .. لا يمنعه زجاج النوافذ ..

- هو يفهم يا ابني ..

- يفهم ماذا ؟

- يفهم أن لا حرس .. لا أسوار .. لا نوافذ زجاجية .. فقط أسرة وولاة .

كيف وأنا أصحبه فوق الأسوار واخترق معه النوافذ ونبول فى خوذات الحرس النيام .

- يا بني ..

- يا أمي انتظرى .. إنه ينوي الذهاب سارافقه إلى لقاء . إلى لقاء .. إلى لقاء .

المشهد الثاني :

- سوف أدفعك إلى الحائط مرة أخرى .. ومرات أخر .. وأهشم فيك نبضك الصناعي .. سوف أحمل أضلاعك ضلعا ضلعا إلى أمك وأبني داخلك حصنا من الرهبة والرعشة ولن أنظر إلى أعلى لا أستطيع رفع رأسى .. لا أحب السماء .. لا أحب الطير لا أحب الحشرات التى تطير .. أكره الفوق والفوقية وصوت الهدير والنار والدخان والصراخ وشيخنا الكاذب .. ومعلمنا الجاهل .

- ألا تجيد السباحة ؟

- لا أعرفها

- والصيد ؟

- أخاف النمل

- وركوب الخيل ؟

- لا خيل .. حمير عاصية .. وبغال خاصية

- أنا مثلك .. أرفع جلبابك وهيا نبول فى خوذات الحرس .

المشهد الأخير :

ما بك .. أسلمت نفسك للجدار .مِمَّ ترتجف وترتعد .. وماذا فى يدك يغمر الأرض ماء .. سوف أحمل أضلاعك إلى أكبر الميادين ضلعا ضلعا وأبني بها صرحا على قاعدة من البازلت الأسود .

- أين أمي ؟

- بعيدة

- أين ؟

- لا يهم .. ما رأيك أن أجعل وجهك ناحية البحر .. وأرفع يدك اليمني تشير مرحبا

ناحية البحر .. إذن فعلت الصواب .. فلن أحتاج إلى خوذات الحرس .. ولكن بمن أرحب .. ؟

- ضيوفنا

- لم يدخل بيتنا ضيف منذ ولدت .

- سيدخلون وتخرج ..

- من ؟

- أعمامنا .. وأبناء عمومتنا

- لا أعمام لى ..

- الست سامي ؟

- نعم إنه أسمي

- إذن هم أبناء عمومتك .. انظر أترى هذه القبعات

- أين

- هناك بجوار الأحذية

- نعم

- إنها هم ..

- نعم .. نعم هيا كنت أبحث عن مكان .. ارفع جلبابك لنبول

صوت الراوي : (وهكذا يبتل فراشة كل ليلة ..)

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب
2007/3332
ترقيم دولى I.S.B.N
977-374-260-1

دار الإسلام للطباعة والنشر
050 / 2266220
0122614363